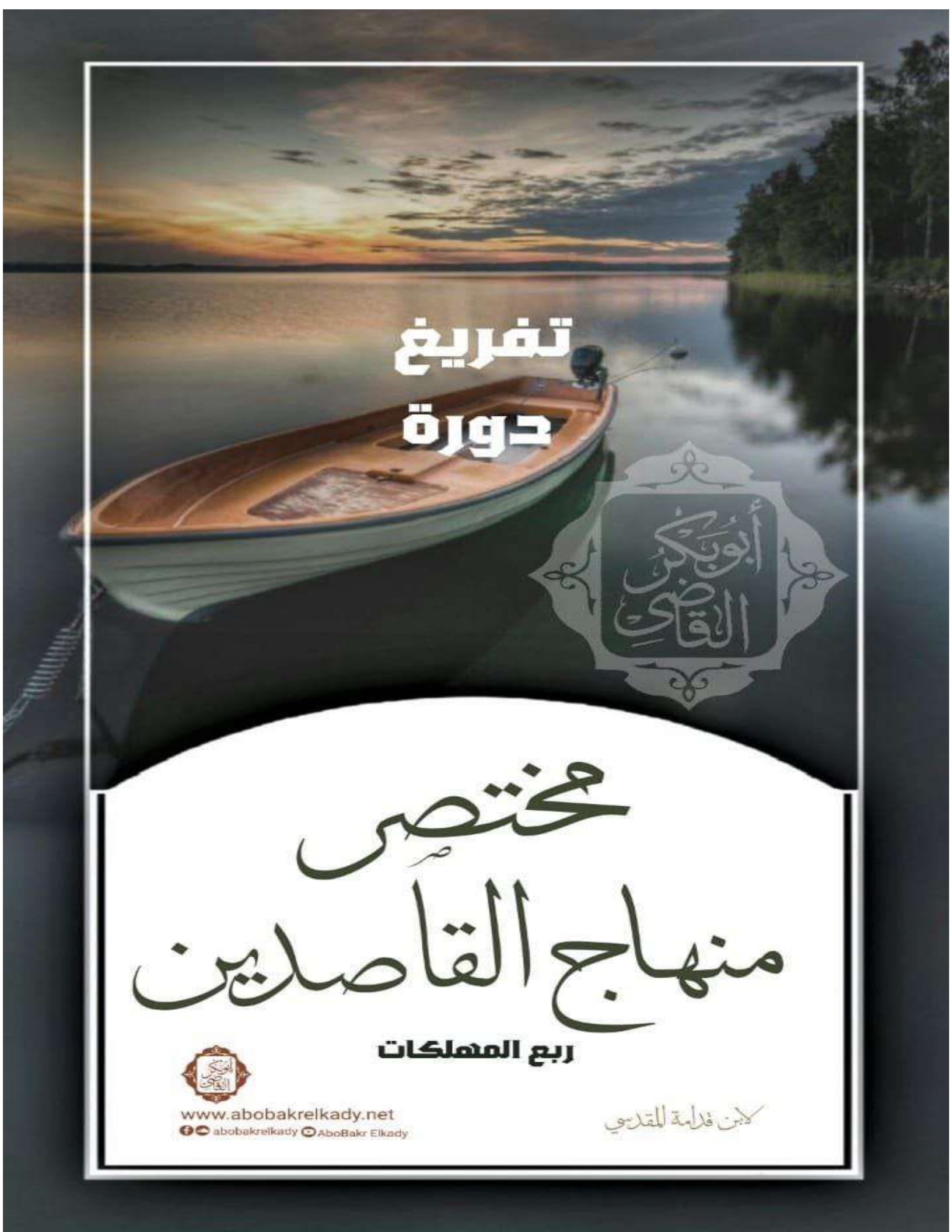

تفريغ

دورة

أبو بكر القاضي

مختصر منهاج القاصدين

ربع المهلكات

لابن قدامة المقدسي

www.abobakrelkady.net

abobakrelkady AboBakr Elkady

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ثمّ أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور مُحدثاتها، وكل مُحدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النار، ثمّ أما بعد:

فلا زلنا مع كتاب مختصر منهاج القاصدين للإمام ابن قدامة -رحمه الله تعالى-.

وقد وصلنا في ربع المُهلكات إلى كتاب آفات اللسان، ويصح التنبيه على أن ربع المهلكات هو أهم ربع فعلًا في هذا الكتاب، وهو نافع جدًا لمن تأمله في أمراض القلوب، وأمراض الأخلاق، والأمراض التي تترتب على ذلك من أمراض السلوك الظاهرة.

ربع المنجيات من الأعمال القلبية المنجية، هو متكرر في كثير من الكتب: ككتب الأعمال القلبية، وكتب ابن القيم، ومدارج السالكين إلى غير ذلك.

لكن ربع المهلكات والتفصيل في الأخلاق المذمومة والأمراض القلبية لا يوجد مثل هذا التفصيل إلا في كتاب الإحياء للغزالي والذي اختصره ابن الجوزي في منهاج القاصدين، ثم اختصره ابن قدامة وهذبه في مختصر منهاج القاصدين؛ لذلك هذا الربع -وإن أطلنا فيه النفس قليلًا- ولكنه نافع جدًا.

قال: "[كتاب آفات اللسان]

قال:"آفاته كثيرة ومتنوعة، ولها في القلب حلاوة، ولها بواعث من الطبع. ولا نجاة من خطرها إلا بالصمت، فلنذكر أولًا فضيلة الصمت، ثم نتبعه بذكر الآفات مفصلة إن شاء الله تعالى".

- ليست القضية في الصمت، وإنما القضية في الحقيقة في القدرة على إلجام اللسان.

يعني أن الصمت في موطن تُطَالَب أنت فيه بالكلام مذموم، والكلام في موطن تطالب فيه بالصمت مذموم أيضًا، إذًا المهارة والملكة التي ينبغي أن تكتسبها هي: ملكة ومهارة أن تضع الكلام في موضعه، وتصمت في موضعه.

قال: "اعلم: أن الصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر، وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال:-

- " مَن يَضْمَن لِي ما بيْنَ لَحْيَيْهِ وما بيْنَ رِجْلَيْهِ، أضْمَنْ له الجَنَّةَ" [صحيح البخاري].
- وفي حديث آخر: " لا يَسْتَقيمُ إيمانُ عبدٍ حتَّى يَستَقيمَ قلبُه، ولا يَسْتَقيمُ قلبُه حتَّى يَستَقيمَ لسانُه" [صحيح الترغيب].
- وفي حديث معاذ في آخره: " كُفَّ عليكَ هذا ، فقُلتُ : يا نبيَّ اللَّهِ ، وإنَّا لمؤاخَذونَ بما نتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فقالَ : ثَكِلَتكَ أمُّكَ يا معاذُ ، وَهَل يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وجوهِهِم أو على مَناخرِهِم إلَّا حَصائدُ ألسنتِهِم" [صحيح الترمذي].
- وفي حديث آخر:" من خزنَ لسانَهُ سترَ اللهُ عَوْرَتَهُ" [السلسلة الصحيحة].

لأنها في الحقيقة أخف عضلة وأكثر عضلة تتحرك في جسم الإنسان هي عضلة اللسان، وأخف عضلة في تحركها على الإنسان، والكلام شهوة من الشهوات، فمن استطاع أن يقاوم ذلك وأن يجاهد نفسه في هذا بحيث لا يكون نطقه إلا ذكر أو في المقام الذي يطيع فيه الله تبارك وتعالى، ويترك كل معاصي اللسان وآفاته فهو قد جاهد جهادًا عظيمًا.

ولذلك قال ﷺ: " مَن يَضْمَن لي ما بيْنَ لَحْيَيْهِ وما بيْنَ رِجْلَيْهِ، أضْمَنْ له الجَنَّةَ" [صحيح البخاري]، وكأن الدين نصفين: -

١- نصف في حفظ اللسان.

٢- ونصف في حفظ الفرج.

تجد بعض الناس يقولون عن الزواج: "أنه أكمل نصف دينه، ربنا يعينه على النصف الآخر"، وفي الحقيقة النصف الآخر هو أن يستقيم لسانه، وهو أن يستقيم على طاعة الله تبارك وتعالى في أخطر الأعضاء وهي اللسان.

- وقال ابن مسعود رضي الله عنه: "ما شيء أحوج إلى طول سجن من لساني."
- وقال أبو الدرداء: "أنصف أذنيك من فيك، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد لتسمع أكثر مما تتكلم به".
- وقال مخلد بن الحسين: "ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريد أن اعتذر منها".

وهذه من المهارات التي نتحدث عنها وهي مهارة إلجام اللسان: أن أستطيع أن أمسك لساني، أستطيع ألا أخطئ في أحد، وألا أقع في المعاصي بحيث أفتقر بعد هذا إلى أن أعتذر إلى فلان، إلى أن أتبرأ من ظلم فلان.

فالمفلس في الحقيقة الذي قال عنه النبيﷺ: "إنَّ المُفْلِسَ مِن أُمَّتي يَأْتي يَومَ القِيامَةِ بصَلَاةٍ، وصِيامٍ، وزَكاةٍ، ويَأْتي قدْ شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذا مِن حَسَناتِهِ، وهذا مِن حَسَناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أنْ يُقْضَى ما عليه أُخِذَ مِن خَطاياهُمْ فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ" [صحيح مسلم].

فهذا المفلس أصل إفلاسه: لسانه، والسبب أنه كان يعمل أعمال حسنة وصالحة كثيرة ولكن لا تثبت في صحيفته؛ لأنه يضيعها بغيبته، يضيعها بنميمته، يضيعها بكذبه، يضيعها بزوره إلى غير ذلك من آفات اللسان فضلًا عن المعاصي الأخرى.

ولكن أسهل شيء هو الولوغ في أعراض الناس، والكذب، والزور، والغش، والحلف الممحق لبركة السلعة كثرة الحلف مما أصبح عند الناس أنه بائع يعرف أن يبيع للناس، يعرف أن يقدم سلعته.

وهذه السلعة قد لا تكون مادة ولكن من الممكن أن تكون فكرة، من الممكن أن تكون قضية هو يعيش بها، أو حتى وجهة نظر عن شخص، أو وجهة نظر عن جماعة، أو وجهة نظر عن أيدولوجية.

للأسف الشديد أن كثير من المتدينين يقع في هذه الغيبة، ويقع في الفحش والتفاحش، ويقع في كلام الزور خدمةً لجماعته أو خدمةً لأيدولوجيته ونظريته ووجهة نظره عن الشيخ الفلاني وعن العالم الفلاني باسم الجرح والتعديل، وإنما هو جرح وتجريح، هذا وأصبح موجود فيما ينتسبون إلى الدين وينتسبون إلى الصلاح.

قال: ذكر آفات الكلام

الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعني.

نحن بدأنا من أقل شيء خطر وهو الكلام فيما لا يعني، والعجيب أن من الأركان التي عدها العلماء من أركان الدين في الأحاديث قول النبي ﷺ: "من حسنِ إسلامِ المَرءِ تركُه ما لا يعنيه" [صحيح الترمذي].

- مع أنك حين ترى ذلك تقول: "تدخله فيما لا يعنيه قد لا يشكل كبيرة، أو قد لا يشكل معصية كبيرة، فكيف يكون من أسس الديانة والشريعة؟".

نقول: "لأن هذا الأمر في الانشغال بما لا يعنيه. والانشغال بما لا يعنيه سيشغله عما يعنيه، والذي يعنيه هو ما يرضي ربه تبارك وتعالى، والذي لا يعنيه هو ما لا يقربه من الله، وليس من وظائفه وليس من واجباته وليس مما يحاسب عنه وليس مما يسأل عنه فلماذا يشغل نفسه به؟

فهو بذلك قد انحرف عن حقيقة الامتحان الذي هو فيه، وعن تصور الامتحان هو في هذا (في الكلام فيما لا يعنيه) دليل على غفلته، دليل عما مراد منه من تحقيق العبودية لله في كل جارحة من جوارحه، في كل لحظة من لحظاته، في كل مكان من أمكنته، في كل حركة، في كل سكنة إلى غير ذلك.

طريقته في الانشغال بما لا يعنيه، والانشغال بالتفاهات، والانشغال بسفاسف الأمور لا شك أنه سيشغله عما يعنيه، سيشغله عن الفاضل، سيشغله عن معالي الأمور.

- قالﷺ: "إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ مَعاليَ الأُمورِ، و أَشرافَها، و يَكرَهُ سَفْسافَها" [صحيح الجامع].

- من انشغل بسفاسف الأمور؛ ينشغل عن معالي الأمور.
- ومن انشغل بما لا يعنيه؛ ينشغل عما يعنيه.
- ومن انشغل بفعل الطاعات؛ ينشغل عن فعل المعاصي.
- ومن انشغل بفعل المعاصي ينشغل عن فعل الطاعات.

لماذا؟ لأن القلب وعاء واحد: {مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ} [الأحزاب: ٤]، يُمْلَأ بشيء يطرد الآخر، يملأ بالحق يطرد الباطل، حتى وإن كان من لوازم الحق، حتى من المستحبات فإنه يطرد الفراغ والغفلة والمكروهات فضلًا عن المعاصي والكبائر والمنكرات.

❖ فلنكن حريصين جدًا على قلوبنا، فلنكن حريصين جدًا على أذهاننا، نشغلها بالنافع، نشغلها بالأعلى بمعالي الأمور:

- بطلب الجنة.

- بطلب الفردوس الأعلى.

.بطلب الاستعمال في خدمة الدين.

- بطلب العلم النافع.

- بطلب حقائق النصوص.

- بطلب حقائق القرآن والسنة وتفسيرهم.

- بطلب بث ذلك في الآفاق.

- بطلب أن نجاهد في سبيل الله بألسنتنا، ثم أن نجاهد بأيدينا، وأن يرزقنا الله عزوجل الشهادة.

- بطلب أعلى مراتب الدين في الدنيا، وأعلى مراتب الجنة في الآخرة.

ينبغي على الإنسان أن يفهم أنه سوى ذلك هو في خُسْر.

- قال تعالى: {وَٱلۡعَصۡرِ * إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ} [العصر: ١-٣].
- قال ﷺ: " كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها" [صحيح مسلم].

الكل يبيع عمره، الكل يبيع وقته، الكل يبيع شبابه، الكل يبيع صباه، الكل يبيع كهولته، الكل يبيع شيخوخته، الكل يبيع أيامه ولياليه، الكل يبيع لحظاته، منهم من يخسر في هذا البيع ويغبن ويضيع، ومنهم من يكسب ويربح ويفوز، وهذا لا يكون إلا بطاعة الله تبارك وتعالى، ولا تكون الطاعة إلا باستقامة التصور، وإلا بالبعد عن الغفلة، وإلا بالبعد عن أهل الغفلة.

- قال تعالى: {وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا} [الكهف: ٢٨] وهم أهل البلاء في الحقيقة.
- قال ابن القيم: "أهل البلاء ليس فقط أهل البلاء في أبدانهم فهؤلاء يؤجرون على ذلك إن صبروا واحتسبوا، ولكن أهل البلاء الحقيقي هم أهل الغفلة عن الله تبارك وتعالى وعن الدار الآخرة"

- أهل الغفلة عما يراد بنا، أهل الغفلة عن الموت والدار الآخرة، أهل الغفلة عن السباق، أهل الغفلة عن حقيقة الامتحان الذي نحياه في هذه الحياة.

قال: "واعلم: أن من عرف قدر زمانه، وأنه رأس ماله، لم ينفقه إلا في فائدة. وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعنيه؛ لأنه من ترك ذكر الله تعالى واشتغل فيما لا يعنى، كان كمن قدر على أخذ جوهرة فأخذ عوضها مدرة، وهذا خسران العمر".

- وفي الحديث الصحيح، أن النبي ﷺ قال: "من حسنِ إسلامِ المَرءِ تركُه ما لا يعنيه" [صحيح الترمذي].
- وقيل للقمان الحكيم: "ما بلغ من حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيته، ولا أتكلم بما لا يعنيني".
- وقد روى أنه دخل على دواد عليه السلام وهو يسرد درعًا، فجعل يتعجب مما رأى، فأراد أن يسأله عن ذلك، فمنعته حكمته فأمسك، فلما فرغ داود عليه السلام، قام ولبس الدرع ثم قال: "نعم الدرع للحرب، فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله".

أي أن داوود عليه السلام قال ما كان يريد لقمان أن يعرفه دون لقمان أن يسأل، وقد اكتسب عندما صمت في الموطن الذي لا فائدة من السؤال فيه، ففي هذا الوقت استخدمه في ذكر لله تبارك وتعالى في تسبيح، في تحميد، في تهليل، في تكبير إلى غير ذلك.

❖ المقصود: أنك لا تسأل عن شيء لا يعنيك وليس من فنك وليس مما تحتاجه أصلًا في حياتك.

**طبعًا هذا الكلام خارج عن طلب العلم النافع: من طلب علوم الشريعة فكلها تعنيك وكلها مما تنفعك.

قال: "الآفة الثانية: الخوض في الباطل.

وهو الكلام في المعاصي، كذكر مجالس الخمر، ومقامات الفساق، وأنواع الباطل كثيرة.

- وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "إنَّ العبدَ لَيتَكَلَّمُ بِالكَلِمةِ ما يَتَبَيَّنُ فيها، يَزِلُّ بِها في النارِ أبعدَ ما بين المشرقِ و المغرِبِ" [صحيح الجامع].

"وقريب من ذلك الجدال والمراء وهو كثرة الملاحاة للشخص لبيان غلطه وإقحامه، والباعث على ذلك الترفيع"

- أي لا بد أن أظهرك غلطان حتى لو بالباطل، حتى لو بالتبرير، حتى لو بالتحايل، هذا راجع من الكبر.

"فينبغي للإنسان أن ينكر المنكر من القول ويبين الصواب، فإن قبل منه وإلا ترك المماراة، هذا إذا كان الأمر معلقًا بالدين، فأما إذا كان في أمور الدنيا فلا وجه للمجادلة فيه.

وعلاج هذه الآفة: بكسر الكبر الباعث على إظهار الفضل، وأعظم من المراء الخصومة، فإنها أمر زائد على المراء".

- يعني: بعد المراء والجدال العقيم يصل الأمر إلى الخصومة والتقاذف والتشاتم وغير ذلك من التقاطع والتدابر.

"وعن النبي ﷺ أنه قال: "إنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إلى اللَّهِ الألَدُّ الخَصِمُ" [صحيح البخاري].

وهذه الخصومة تعني بها الخصومة بالباطل أو بغير علم، فأما من له حق فالأولى أن يصدف عن الخصومة مهما أمكن؛ لأنها توغر الصدر، وتهيج الغضب، وتورث الحقد، وتخرج إلى تناول العرض".

- حتى ولو كان في الدين فإن هذا الأمر فعلًا ينفر الناس حتى ولو كنت على حق، فإن هذا الأسلوب ليس من الحكمة والموعظة الحسنة.

قال: "الآفة الثالثة: التقعر في الكلام.

وذلك يكون بالتشدق وتكلف السجع، أو تكلف إظهار المعلومات.

وعن أبي ثعلبة قال رسول الله ﷺ: "إنَّ أبغضَكم إليَّ وأبعدَكم منِّي في الآخرةِ أسوَؤُكم أخلاقًا الثَّرثارون المُتفيهِقون المتشدِّقون" [الترغيب والترهيب].

ولا يدخل في كراهة السجع والتصنع ألفاظ الخطيب، والتذكير من غير إفراط"

لأن السجع عامة يلفت النظر. يعني يراد به إلفات النظر والانتباه فهذا قد يكون مراد في خطبة الجمعة أو في الوعظ عامة؛ لأنك تريد أن توصل معنًا شريفًا. أما أن تلفت النظر لذاتك، وتلفت النظر لإظهار فضلك على الناس فهذا هو المذموم.

وطبعًا هذه الأمور محتاجة لمجاهدات، ومحتاجة لمحاسبة للنفس، ومحتاجة لنظر، ومحتاجة لترصد، ومحتاجة لترقب لحيل النفوس وخداعها للإنسان.

قال: "لأن المقصود في الوعظ من ذلك تحريك القلوب وتشويقها ورشاقة اللفظ ونحو ذلك.

الآفة الرابعة: الفحش والسب والبذاء ونحو ذلك.

فإنه مذموم منهي عنه، ومصدره الخبث واللؤم"

مهما كان الأمر لا يجوز على الإطلاق، فإذا قلت: أشتم الكفرة، أشتم الملاحدة، أشتم اليهود والنصارى فكل هذا لايجوز.

فلا ينبغي أن يكون المؤمن فحاشًا ولا بذيئًا، وإنما تصفهم بالأوصاف التي وردت في القرآن والسنة وهذا يكفي جدًا.

- وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: "وإيَّاكم والفُحشَ فإنَّ اللهَ لا يحبُّ الفُحشَ ولا التفحشَ" [أخرجه أبو داود]
- عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: "إِنَّ الْجَنَّةَ حَرَامٌ عَلَى كُلِّ فَاحِشٍ".
- وفي حديث آخر: "ليسَ المؤمنُ بالطَّعَّانِ ولا اللَّعَّانِ ولا الفاحشِ ولا البَذيءِ" [صحيح الترمذي].

"واعلم: أن الفحش والبذاء هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ما يكون ذلك في ألفاظ الجماع وما يتعلق به، فإن أهل الخير يتحاشون عن تلك العبارات ويكنون عنها ولا يصرحون بها؛ لأن هذا من القحة وهي الوقاحة.

ومن الآفات: الغناء وقد سبق فيه كلام في غير هذا الموضوع"

- سبق في الكتاب قبل هذا الكلام عن السماع وغير ذلك في باب العادات.

"

الآفة الخامسة: المزاح.

أما اليسير منه، فلا ينهى عنه إذا كان صدقًا، فإن النبي ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقًا، فإنه قال لرجل:

- "يا ذا الأُذُنَيْنِ" [صحيح الترمذي].
- وقال لآخر: " إنا حاملوكَ على ولدِ ناقةٍ" [صحيح أبي داود].
- وقال للعجوز: " إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ" ثم قرأ: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا} [الواقعة:٣٥-٣٧].
- وقال لأخرى: "زوجك الذي في عينيه بياض؟ " .

فقد اتفق في مزاحه صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أشياء: -

١. أحدها: كونه حقًا.
٢. والثاني: كونه مع النساء والصبيان، ومن يحتاج إلى تأديبه من ضعفاء الرجال.
٣. والثالث: كونه نادرًا، فلا ينبغي أن يحتج به من يريد الدوام عليه، فإن حكم النادر ليس كحكم الدائم.

ولو أن إنسانًا دار مع الحبشة ليلًا ونهارًا ينظر إلى لعبهم واحتج بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقف لعائشة وأذن لها أن تنظر إلى الحبشة لكان غالطًا؛ لندور ذلك.

فالإفراط في المزاح والمداومة عليه منهي عنه؛ لأنه يسقط الوقار، ويوجب الضغائن والأحقاد.

وأما اليسير -كما تقدم من نحو نوع مزاح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم- فإن فيه انبساطًا وطيب نفس.

الآفة السادسة: السخرية والاستهزاء.

ومعنى السخرية: الاحتقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وكله ممنوع منه في الشرع، ورد النهي عنه في الكتاب والسنة، ويدخل فيه التنابز بالألقاب.

الآفة السابعة: إفشاء السر، وإخلاف الوعد والكذب في القول واليمين.

وكل ذلك منهي عنه، إلا ما رخص فيه من الكذب لزوجته وفي الحرب فإن ذلك يباح إن كانت المصلحة راجحة.

وضابطه: أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب، فهو فيه مباح إن كان هذا المقصود مباحًا، وإن كان المقصود واجبًا، فهو واجب، فينبغي أن يحترز عن الكذب مهما أمكن".

أي: إن كان مثلًا سيؤدي هذا الأمر إلى ظلم إنسان، مثل أن يذهب أحدهم للأمن فيبوح بكل الأسرار ومبرره أنه لا يكذب، فإن هذا سيؤدي إلى ظلم إخوانه وإلى وضعهم في غير موضع، ولن يتم محاسبتهم بالشكل الذي لا ظلم فيه، بل قد يقع بعض الظلم فيه، فهنا لا تقول أن الكذب يجوز.

"وتباح المعاريض، عن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: "إنَّ في المعاريضِ لمندوحةً عن الكَذِبِ".

وإنما تصلح المعاريض عند الحاجة إليها، فأما مع غير الحاجة فمكروهة لأنها تشبه الكذب.

فمن المعاريض: ما روينا عن عبد الله بن رواحة رضى الله عنه أنه أصاب جارية له فعلمت امرأته، فأخذت شفرة ثم أتت فوافقته قد قام عنها، فقالت: "أفعلتها؟ فقال: ما فعلت شيئًا"

طبعًا هو يريد شيئًا في ذهنه يعني يعرض به، لماذا؟ لأنها تحمل السكينة وتريد قتله، والأخرى هي حلاله وجاريته وهي ملك يمينه فتريد أن تقتله فأراد أن يعرض لينجو من الخطر.

قالت: "لتقرأن القرآن أو لأبعجنك -أي أطعنك بالسكين-، فقال -رضي الله عنه- كأنه قرآن.

ومسألة هل هذا قرآن، فقد قرأ شيئًا من الشعر.

وفينا رسول الله يتلو كتابه ..إذا انشق معروف من الفجر ساطع .

يبيت يجافي جنبه عن فراشه.. إذا استثقلت بالكافرين المضاجع.

أرانا الهدى بعد العمى.. فقلوبنا به موقنات أنّ ما قال واقع.

يقرأ هذا الشعر على أساس أنه قرآن وهي لا تعرف القرآن؛ فصدقته.

قالت: آمنت بالله وكذبت بصري.

وكان النخعي إذا طُلِب قال للجارية: "قولي اطلبوه في المسجد" أي اذهبوا له المسجد، وهو فعلًا ذاهب إلى المسجد.

ولكن ليس مثل أن تقول لابنك ليقول: "بابا يقول لك أنا غير موجود" وتعلم الولد الكذب، وتعلم الناس الكذب، وإنما لا "اطلبوه في المسجد" كلام عام، أي أنك غير متاح الآن، فتقول لهم ارجعوا واطلبوه في المسجد فهذا ليس فيه كذب.

قال : الآفة الثامنة: الغيبة

وقد ورد في الكتاب العزيز بالنهي عنها، وشبه صاحبها بآكل الميتة.

- وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: "فإنَّ دِمَاءَكُمْ، وأَمْوَالَكُمْ، وأَعْرَاضَكُمْ، وأَبْشَارَكُمْ، علَيْكُم حَرَامٌ" [صحيح البخاري].
- وعن أبي برزة الأسلمي قال ،قال رسول الله ﷺ: "يا معشرَ من آمنَ بلسانِه ولم يدخلْ الإيمانُ قلبَه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتَّبعوا عوراتِهم ، فإنه من اتَّبعَ عوراتِهم يتَّبعُ اللهُ عورتَه ، ومن يتَّبعِ اللهُ عورتَه يفضحُه في بيتِه" [صحيح أبي داود].
- وفي حديث آخر عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: " إيَّاكُم والغِيبَةَ، فإنَّ الغِيبَةَ أَشَدُّ من الزِّنا، إنَّ الرجلَ قد يَزْنِي ويتوبُ فيتوبُ اللهُ عليه، وإنَّ صاحِبَ الغِيبَةِ لا يُغْفَرُ له حتى يَغْفِرَ له صاحِبُهُ" [ضعيف الجامع].
- قال علي ابن الحسين- رضي الله عنهما-: "إياك والغيبة؛ فإنها إدام كلاب الناس".

والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة مشهورة.

معني الغيبة؟

- أن تذكر أخاك الغائب بما يكرُهه.

تقول لي: حتى لو فيه؟!

حتى لو فيه؛ فإن لم يكن فيه أصبحت غيبة وبهتان، وإن كان فيه؛ فهي غيبة سواء كان نقصًا في بدنه كالعمش، والعور، والحول والقرع، والطول، والقصر ونحو ذلك، أو في نسبه قولك: "أبوه نبطي، أو هندي، أو فاسق، أو خسيس ونحو ذلك. أو في خُلقه، أو في خلقه كما في قولك: هو سيء الخلق، بخيل، متكبر ونحو ذلك . أو في ثوبه كقولك: هو طويل الذيل واسع الكم واسخ الثياب.

والدليل على ذلك أن النبي ﷺ سئل عن الغيبة فقال: " ذِكْرُكَ أخاكَ بما يَكْرَهُ" [صحيح مسلم].

" أَتَدْرُونَ ما الغِيبَةُ؟ قالوا: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: ذِكْرُكَ أخاكَ بما يَكْرَهُ. قيلَ: أفَرَأَيْتَ إنْ كانَ في أخِي ما أقُولُ؟ قالَ: إنْ كانَ فيه ما تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وإنْ لَمْ يَكُنْ فيه فقَدْ بَهَتَّهُ" [صحيح مسلم].

"واعلم أن كل ما يفهم منه مقصود الذنب فهو داخل في الغيبة سواء كان بكلام أو بغيره كالغمز، والإشارة، والكتابة بالقلم، فإن القلم أحد اللسانين".

- طبعاً كل هذا داخل فيه البوستات، والكومنتات والإفيهات وغير ذلك.

" وأقبح أنواع الغيبة: غيبة المتزاهدين المرائين، مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون: "الحمد لله الذي لم يبتلينا بالدخول على السلطان، والتبذل في طلب الحطام"، أو يقولون: "أعوذ بالله من قلة الحياء أو نسأل الله العافية"، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم.

وربما قال أحدهم عند ذكر إنسان: "ذاك المسكين قد بُلِيَ بآفة عظيمة، تاب الله علينا وعليه"، فهو يظهر الدعاء له ويخفي قصده.

واعلم أن المستمع للغيبة شريك فيها".

- يعني الذي يجلس ولا ينكر شريك فيها.

"ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه، فإن خاف فبقلبه، وإن قدر على القيام، أو قطع الكلام بكلام آخر لزمه ذلك.

- وقد روي عن النبي ﷺ: " مَن أُذِلَّ عندَهُ مؤمنٌ فلم ينصُرْهُ وَهوَ قادرٌ علَى أن يَنصرَهُ أذلَّهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ علَى رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ" [السلسلة الضعيفة].
- وقال ﷺ: "من حمى مؤمنًا من منافقٍ – أُراهُ قال – :بعث اللهُ ملكًا يحمي لحمَه يومَ القيامةِ من نارِ جهنمَ" [صحيح أبي داود].
- ورأى عمرو بن عتبة مولاه مع رجل وهو يقع في آخر فقال له: "ويلك! نزه سمعك عن استماع الخنا كما تنزه نفسك عن القول به، فالمستمع شريك القائل. وإنما انظر إلى شر ما في وعائه فأفرغه في وعائك، ولو ردت كلمة سفيه في فيه لسعد بها رادها، كما شقي بها قائلها".

وقد ورد أحاديث في حق المسلم على المسلم تقدمت في كتاب الصحبة.

أي: لو رددته الكلمة عن غيه لسعد بها كما شقي بها قائلها.

❖ قال: **فصل: في بيان الأسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها.**

أما الأسباب التي تبعث على الغيبة فكثيرة، منها:-

١- **تشفي الغيظ:** بأن يجري من إنسان في حق آخر سبب يوجب غضبه، فكلما هاج غضبه تشفى بغيبة صاحب السبب.

الباعث الثاني على الغيبة:

٢- **موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم:** فإنهم إذا كانوا يتفكهون في الأعراض رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا عنه، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة

٣- **إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره:** فيقول: "فلان هذا جاهل وفهمه ركيك" ونحو ذلك، وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويريهم أنه أعلم منه.

٤- **وكذلك الحسد في ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم**: فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك.

٥- **اللعب والهزل**: فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة، حتى أن بعض الناس يكون كسبه من هذا، وهذا فيه كل من تقليد المشهورين.

وأما علاج الغيبة: فليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله ومقته، وأن حسناته تنقل إلى المغتاب، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه. وإن يستحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة، وينبغي إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر في عيوب نفسه ويشتغل بإصلاحها، ويستحي أن يعيب وهو معيب.

كما قال بعضهم: "فإن عبت قومًا بالذي فيك مثله، فكيف يعيب الناس من هو أعور؟! وإن عبت قومًا بالذي ليس فيهم، فذلك عند الله والناس أكبر".

وإن ظن أنه سليم من العيوب؛ فليتشاغل بالشكر على نعم الله عليه، ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة. وكما لا يرضى لنفسه بغيبة غيره له؛ فينبغي ألا يرضاها لغيره من نفسه، ولينظر في السبب الباعث على الغيبة، فيجتهد على قطعه، فإن علاج العلة يكون بقطع سببها.

فالأسباب التي سبق وذكرناها:

- إما الغضب الشديد.

- إما أنه يوافق جماعته.

- إما أنه يريد رفع نفسه.

- أو أنه يحسد فلان، فيريد أن يقلل منه.

- أو أنه يضحك ويسخر، ثم يقول لك: "إني فقط أسخر"، وهو في الحقيقة هذا الأمر يأتي بالسيئات حتى لو كان لهوًا.

قال: "فليعالج الغضب بمسألة في كتاب الغضب، ويعالج موافقة الجلاس بأن يعلم أن الله يغضب على من طلب رضا المخلوقين بسخطه، بل ينبغي أن يغضب على الرفقاء وعلى نحو هذا معالجة البواقي.

❖ قال: **فصل: وقد تحصل الغيبة بالقلب وذلك لسوء الظن بالمسلمين.**

والظن ما ترك إليه النفس ويميل إليه القلب، فليس لك أن تظن بالمسلم شرًا إلا إذا انكشف أمر لا يحتمل التأويل.

فإن أخبرك بذلك عدل، فمال قلبك إلى تصديقه كنت معذورًا؛ لأنك لو كذبته كنت قد أسأت الظن بالمخبر، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر، بل ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة وحسد؟

فتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك.

ومتى خطر لك خاطر سوء على مسلم؛ فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلق إليك خاطر السوء؛ خيفة من اشتغالك بالدعاء له والمراعاة.

وإذا تحققت هفوة مسلم؛ فانصحه في السر.

واعلم أن من ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وذلك منهي عنه؛ لأنه يوصل إلى هتك ستر مسلم ولو لم ينكشف لك كان قلبك أسلم للمسلم.

قال: **بيان الأعذار المرخصة في الغيبة وكفارة الغيبة.**

اعلم أن المرخص في ذكر مساوئ الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به، وذلك بدفع إثم الغيبة، وهو أمور:

- أحدها التظلم: فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استعداه إلى ما يستوفي حقه.
- الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهاج الصلاح.
- الثالث: الاستفتاء، مثل أن يقول للمفتي: "ظلمني فلان، أو أخذ حقي فكيف طريقي في الخلاص"، فالتعيين مباح، والأولى التعريض وهو أن يقول: "ما تقول في رجل ظلمه أبوه أو أخوه" ونحو ذلك.

والدليل على إباحة التعيين: حديث هند حين قالت: "إن أبا سفيان رجل شحيح" ولم ينكر عليها النبي ﷺ.

- الأمر الرابع : تحذير المسلمين. مثل أن ترى متفقهًا يتردد إلى مبتدع أو فاسق، وتخاف أن يتعدى إليه ذلك، فلك أن تكشف له الحال.

وكذلك إذا عرفت من عبدك السرقة والفسق، فتذكر ذلك للمشتري. وكذلك المستشار في التزويج، وإيداع الأمانة له أن يذكر ويعرفه على قصد نصح المستشير لا على قصد الوقيعة إذا علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح.

- الخامس: أن يكون معروفًا بلقب كالأعرج والأعمش، فلا إثم على ما يذكره به وإن وجد عن ذلك معدلًا كان أولى.
- السادس: أن يكون مجاهرًا بالفسق ولا يستنكف أن يذكر به.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: "من ألقى جِلبابَ الحياءِ فلا غيبةَ لَهُ" [شعب الإيمان: إسناده ضعيف].

قيل للحَسَنِ: الفاجِرُ المُعلِنُ بفُجورِه، ذكري له بما فيه، غِيبةٌ؟ قال: لا، ولا كرامةَ

وأما كفارة الغيبة :

فأعلم أن المغتاب قد جنى جنايتين:-

- إحداهما: على حق الله تعالى، إذ فعل ما نهاه عنه؛ فكفارة ذلك التوبة، والندم، والجهاد.
- الثانية :على عرض المخلوق، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل جاء إليه واستحله وأظهر له الندم على فعله.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "من كانت عنده مَظْلِمَةٌ لأخيه، من عِرضِه أو من شيءٍ، فلْيتحلَّلْهُ منه اليوم قبل أن لا يكون دينارٌ ولا درهم؛ إن كان له عمل صالحٌ أُخِذ منه بقدر مَظلِمتهِ، وإن لم يكن له حسناتٌ أُخِذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه" [رواه البخاري].

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل، جعل مكان استحلاله الاستغفار له؛ لئلا يخبره بما لا يعلم فيوغر صدره.

وقد ورد في الحديث كفارة من اغتبته أن تستغفر له.

وقال مجاهد: "كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه، وتدعو له بخير، وكذلك إن كان قد مات".

الآفة التاسعة من آفات اللسان: النميمة

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: " لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتّاتٌ" [صحيح مسلم].

واعلم أن النميمة تطلق في الغالب على نقل قول إنسان في إنسان.

مثل أن يقول: "قال فيك فلان كذا وكذا" ليست مخصوصة بهذا، بل حدها كشف ما يكره كشف سواء كان من الأقوال أوالأعمال، حتى لو رآه يدفن مالًا لنفسه فذكره؛ فهو نميمة ، وكل من نقلت إليه النميمة، مثل أن يقال له: "قال فيك فلان كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا وكذا" ونحو ذلك، فعليه ستة أشياء:

الأول: المنقول إليه النميمة ألا يصدق النقل؛ لأن النمام فاسق مردود الشهادة.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحه.

الثالث: أن يبغضه في الله فإنه بغيض عند الله.

الرابع: ألا يظن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: ألا يحمله ما حكي له على التجسس والبحث لقوله ﷺ: " ولا تَجَسَّسُوا" [صحيح مسلم].

السادس: ألا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه فلا يحكي نميمته.

ويروى أن سليمان بن عبد الملك قال للرجل: "بلغني أنك وقعت في، وقلت كذا وكذا، فقال الرجل: ما فعلت؟! فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق. فقال الرجل: أيكون النمام صادقًا؟! فقال سليمان: صدقت اذهب بسلام".

وقال يحيى بن أبي كثير: "يفسد النمام في ساعة ما لا يفسده الساحر في شهر".

فقال: نعم .

وقد حكي أن رجلًا ساوم بعبده، فقال مولاه: "إني أبرأ إليك من النميمة والكذب، فقال: أنت بريء منهما، فاشتراه فجعل يقول لمولاه: إن امرأتك تبغي وتفعل وتفعل، وأنها تريد أن تقتلك، ويقول للمرأة: إن زوجك يريد أن يتزوج عليك ويتسرى، فإن أردت أن أعطفه عليك فلا يتزوج ولا يتسرى؛ فخذي الموسى واحلقي شعرة من حلقه إذا نام، وقال للزوج: إنها تريد أن تقتلك إذا نمت.

قال: فذهب فتناوم، فجاءت بموسى لتحلق شعرة من حلقه؛ فأخذها بيده فقتلها. فجاء أهلها فاستعدوا عليه فقتلوه.

- كل ذلك بسبب نقل النميمة، وتصديق المرأة والرجل ذلك.

الآفة العاشرة: كلام ذي اللسانين.

الذي يتردد بين المتعادين وينقل كلام كل واحد إلى الآخر، ويكلم كل واحد بكلام يوافقه، ويعد أنه ينصره أو يثني على الواحد في وجهه ويذمه عند الآخر.

- وفي الحديث: " إِنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الوَجْهَيْنِ، الذي يَأْتي هَؤُلَاءِ بوَجْهٍ، وهَؤُلَاءِ بوَجْهٍ" [صحيح البخاري].

واعلم أن هذا فيه من لم يضطر إلى ذلك، فأما إذا اضطر إلى مضاراة الأمر له جاز.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: "إنا لنكشر في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم ومتى قدر ألا يظهر موافقتهم لم يجز له".

الآفة الحادية عشرة: المدح وله آفات.

منها ما يتعلق بالمادح، ومنها ما يتعلق بالممدوح.

- طبعاً المدح هذا له فقه

فقد يقول ما لا يتحقق، ولا سبيل إلى الاطلاع عليه مثل أن يقولها ورع زاهد. وقد يفرط في المدح، فينتهي إلى الكذب، وقد يمدح من ينبغي أن يذم .

وقد روى في حديث: " إِنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ إِذَا مُدِحَ الْفَاسِقُ ".

وقال حسن: "من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يُعصى الله".

وأما الممدوح: فإنه يحدث فيه كبرًا أو إعجابًا وهما مهلكان.

ولهذا قال النبي ﷺ لما سمع رجلًا يمدح رجلاً: "وَيْلَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ " [صحيح البخاري].

وهو مشهور

وقد روينا عن الحسن قال: كان عمر رضي الله عنه قاعدًا ومعه الدرة والناس حوله، إذ أقبل الجارود، فقال الرجل: "هذا سيد ربيعة"، فسمعها عمر رضي الله عنه ومن حوله وسمعها الجارود. فلما دنا منه خفقه بالضرة. فقال: "ما لي ولك يا أمير المؤمنين؟! فقال: ما لي ولك! أما لقد سمعتها. قال: سمعتها فمه؟!

قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء، فأحببت أن أطأطئ منك".

ولأن الإنسان إذا أثنى عليه بالخير رضي عن نفسه وظن أنه قد بلغ؛ فيفتر عن العمل. ولهذا قال: "قطعت عنق صاحبك" فأما إذا سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس".

- فثناء بشيء حقيقي، بشيء مشاهد بإنجاز وفي نفس الوقت يؤتمن على المثنى عليه من الفتنة ومعلوم أنه ليس عنده هذا المرض، ولا يظهر هذا على ترفعه ولا استعلائه على الناس.

فقد أثنى النبي ﷺ على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

وليس الكلام أن تشجعني وفقط، لا فالموضوع ليس كذلك وإنما بفقه وعلم ولكن الأصل النهي والاستثناء الرخصة.

"وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز من آفة الكبر، والعجب، والفتور عن العمل.

ولا ينجو من هذه الآفات إلا أن يعرف نفسه ويتفكر في أن المادح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدح.

- "اللهم اغفر لي ما لا يعلمون واجعلني أحسن مما يظنون ولا تؤاخذني بما يقولون"

وقد روي أن رجلًا من الصالحين أُثني عليه فقال: "اللهم هؤلاء لا يعرفوني، وأنت تعرفني".

الآفة الثانية عشرة: الخطأ في فحوى الكلام فيما يرتبط في أمور الدين.

لا سيما فيما يتعلق بالله، ولا يقدر على تقويم اللفظ بذلك إلا العلماء الفصحاء، فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخلُ كلامه عن الزلل لكن يعفو الله عنه لجهله.

مثال ذلك: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لما قال له رجلٌ : ما شاء اللهُ وشئتَ: "أجعلتَني للهِ ندًّا؟ ما شاء اللهُ وحدَه". [مجموع فتاوى ابن باز].

وذلك لأن في العطف المطلق تشريكًا وتسوية، وقريب من ذلك إنكاره على الخطيب قوله ومن يعصي ما فقد غوى، وقال: ومن يعصي الله ورسوله.

- وقال ﷺ: " لا يَقُلْ أحَدُكُمْ: أطْعِمْ رَبَّكَ، وضِّئْ رَبَّكَ، اسْقِ رَبَّكَ، ولْيَقُلْ: سَيِّدِي، مَوْلايَ، ولا يَقُلْ أحَدُكُمْ: عَبْدِي، أَمَتِي، ولْيَقُلْ: فَتايَ، وفَتاتي، وغُلامِي" [صحيح البخاري].
- وقال النخعي: "إذا قال الرجل للرجل يا حمار يا خنزير، قيل له يوم القيامة أرأيتني خلقت حمارًا، أرأيتني خلقت خنزيرًا؛ فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن حصره.

- ومن تأمل ما وردناه في آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم.

وعند ذلك يعرف سر قوله ﷺ: " مَنْ صَمَتَ نَجَا" [صحيح الترغيب].

لأن هذه الآفات مهالك وهي على طريق المتكلم، فإن سكت سلم.

- فضلًا عن الكلام فيما لا يحسنه من الفتاوى وغير ذلك، والقرارات والنوازل، والقضايا المصيرية، ويتشبع بما لم يعط؛ هذا من أشد أنواع المهالك في آفات اللسان لأن هذا يترتب عليه ضلال كثير من الناس، وتشوش الحق. وإذا سكت من لا يعلم لقل الخلاف.
- كثرة الخلاف تشوش الناس.

"من صمت نجا" حتى في المسائل المشتبهات والمختلفة فيها لا تتكلم فيما لا تحسن، ولم تحرر هذه المسألة، ولم تتحر وتستقصي كل جوانب العلم بالشرع، والعلم الواقع فيها، فالصمت لا سيما في أوقات الفتن نجاة.

❖ **قال: فصل: ومن آفات العوام سؤالهم عن صفات الله تعالى وكلامه**

قال: "اعلم أن الشيطان يخيل للعامي أنك بخوضك في العلم تكون من العلماء وأهل الفضل، فلا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم بمواقفهم وهو لا يدري.

- قال النبي ﷺ: "لا يَزالُ النَّاسُ يَتَساءَلُونَ حتَّى يُقالَ: هذا خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ، فمَن خَلَقَ اللَّهَ؟" [صحيح مسلم].

فسؤال العوام عن غوامض العلم أعظم الآفات، وبحثهم عن معاني الف بما يفسدهم مما لا يصلحهم. المقصود هنا الكيف، وإنما الأصل هو فهم المعاني وتفويض الكيف إلى الله، هذه هي العقيدة السلفية إذ الواجب عليهم التسليم.

نعم التسليم إثبات المعاني وتفويض الكيف إلى الله، فالأولى بالعامي الإيمان بما ورد به القرآن ثم التسليم بما جاء به الرسول ﷺ من غير بحث عن الكيف واشتغالهم بالعبادات. فإن اشتغالهم بالبحث عن أسرار العلم كبحث سائمة الدواب في أسرار ملك- نسأل الله العافية .

بهذا نكون انتهينا من كتاب آفات اللسان